توريث المهنة وأثره في تدوين كتب الطب العربي

د. نبيل فتحي حسين

تُعد الكتب التي ألّفها الأطباء لأبنائهم من أقدم ما يطالعنا من مؤلفات طبية أنجزت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وهي تدلّ على أنّ أحد دوافع التأليف الطبي المبكّر كان السعي لتوريث مهنة الطب للأبناء. وربما كان ذلك تقليداً لعرف قديم درج عليه الأطباء اليونانيون، الذين لم يكونوا يعلّمون الطب للغرباء، وإنما يعلّمونه أبناءهم([1])، وإن كان الطبيب الشهير (بُقراط) (Hippocratus) خرق هذا العرف عندما "علم الغرباء الطب، وجعلهم شبيهاً بالأولاد. لما خاف عن الطب أن يفنى من العالم. كما ذكر ذلك في كتاب عهده إلى الأطباء الغرباء، الذين علمهم الصَّنْعة"([2]).

وربما تكون المبادرة الأولى في سياق تأليف الأطباء كتباً لأبنائهم قد أنجزت في (واسط)، عندما قام (تياذوق) (ت نحو سنة ٩٠هـ/٧٠٨م)، وهو طبيب والي العراق (الحجاج بن يوسف الثقفي) (ت ٩٥هـ/٧١٣م)([3])، توفي بـ(واسط)([4])، بتأليف كنَّاش كبير لابنه([5])، وإن كنّا لا نعرف شيئاً عن ابنٍ لـ(تياذوق) برع في الطب لاحقاً. أما (الكنَّاش) و(كنَّاشة) فكلمة آرامية تطلق على "بحث أو مقالة في الطب والعلاجات، حيث يرد ذكر أعضاء الجسم الإنساني باستمرار، وطرائق العناية به، وشفائه حين يمرض"([6]).

وبقي السعي إلى توريث مهنة الطب للأبناء أحد دوافع التأليف الطبي في القرن

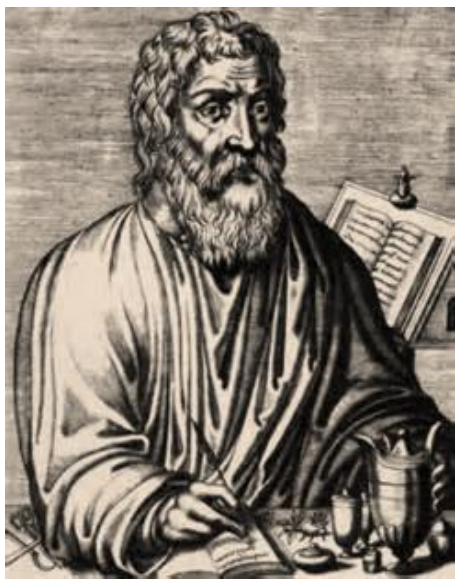

الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حيث ألف الطبيب الشهير (أبو جِبْريل بُخْتِيشُوع بن جُورْجِس بن بُخْتِيشُوع) (كان حيّاً قبل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م)، كتاب (التَّذكِرة) لابنه (جبرائيل)([٧])، وإنْ كنّا لا نعرف أين ألّف كتابه هذا، فهو مارس نشاطه بادئ الأمر في (جنديسابور)([٨])، قبل أن يُستدعى إلى (بغداد)، حيث مارس نشاطه فيها، وفي (سامراء) أيضاً، يدل على ذلك إشارة (النديم) (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) إلى أنه "خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل"([٩]).

ويظهر أنّ تقليد توريث مهنة الطب للأبناء ظلّت له تأثيراته على الكتابة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أيضاً – على الرغم من قلّة شواهدنا – كما يظهر أنه سرعان ما انتشر في الأوساط الطبية التي اشتغل فيها مسلمون ونصارى وصابئة، فقد ألّف (أبو زيد حُنين بن إسحاق العبادي) (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م)، المترجم والطبيب الشهير، الذي مارس نشاطه في (بغداد)([١٠])، كتاب (العين على طريق المسألة والجواب)([١١]). ووفقاً لمؤرخ الطبّ العربي الشهير (ابن أبي أصيبعة) (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، فقد ألّفه لولديه (داوود) و(إسحاق)([١٢])، وهو كتاب يقع في ثلاث مقالات([١٣])، ويتضمن مائتين وتسع مسائل([١٤]). ويظهر من الإشارات التي قُدمت حول منهج تأليف الكتاب، وطبيعة موضوعه، وعدد المسائل التي تناولها، أنه يمثّل مرحلة متقدمة على الكتابين السابقين، اللذين ألّفهما في القرنين السابقين كلٌ من: تياذوق وبُخْتِيشُوع بن جُورْجِس، فهو كتاب متخصص في العين تحديداً، يقوم منهجه على السؤال والجواب، يتضمن مسائل كثيرة، خاصة بالعين طبعاً، ولم يقدّمه مؤلّفه لأحد أبنائه لكي يرثه في الصنعة، وإنما لابنيه معاً، وكأن (حُنين) يريد أن يجعل من العمل في ميدان الطب نشاطاً أسرياً خاصاً بعائلته.

أما كتاب (الذخيرة)([١٥])، الذي يصفه (القفطي) (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) بأنه "كنّاش عربي جيد"([١٦])، كما يوصف بأنه

"كتاب نادر في الطب"([١٧])، والذي يقول (ابن أبي أصيبعة) إنّ (أبا الحسن ثابت بن قُرَّة الحَرَّانِيّ الصابئ) (ت ٢٨٨هـ/٩٠٠م)، الرياضي المعروف الذي عاش في بغداد([١٨])، ألّفه لولده (سنان)([١٩])، فهناك من يشكك في نسبته لـ(ثابت)، إذ يقول (أبو علي المحسن بن إبراهيم الصابئ) (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م): "وسألت أبا الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة عن هذه الرسالة [يقصد رسالة عربية منسوبة لثابت في شرح مذهب الصابئة] والكنّاش، فقال ليس ذلك لثابت، ولا وجدتُه في كتبه، ولا دساتيره"([٢٠]). ويذكر (القفطي) و(ابن أبي أصيبعة) كتاباً لـ(ثابت) إلى ابنه (سنان) في الحثّ على تعلّم الطب والحكمة([٢١]).

ولم يقتصر هذا العرف في التأليف على العراق، مركز الثقافة والعلم آنذاك، وإنما انتقل إلى أماكن أخرى، فقد كتب (محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي) (كان حيّاً سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، الطبيب المقدسي الذي مارس نشاطه في (مصر)([٢٢])، رسالة "إلى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق، والتنبيه على ما يغلظ فيه من أدويته، ونعت أشجاره الصحيحة، وأوقات جمعها، وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته"([٢٣]). وهي رسالة يدلّ عنوانها على أنّ الغرض منها كان توريث المعرفة بالأدوية، لا بالأمراض وكيفية علاجها❐

الهوامش:

(١) إسحاق بن حنين، تاريخ الأطباء والفلاسفة، ملحق بكتاب، أبو داوود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد (ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥)، ص١٥٣؛ أبو الوفاء المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، حققه وقدّم له وعلق عليه، الدكتور عبدالرحمن بدوي (ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص٤٤-٤٥.

(٢) إسحاق بن حنين، المصدر السابق، ص١٥٤.

(٣) أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، كتاب الفهرست، قابله على أصوله وعلق عليه وقدم له،

الدكتور أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٩)، م٢، ج١، ص٣١٧؛ موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، الدكتور نزار رضا (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص١٧٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص١٨١.

(٥) المصدر والمكان نفسهما.

(٦) رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة، الدكتور محمد سليم النعيمي، مراجعة، جمال الخياط (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨-٢٠٠٠)، ج٩، ص١٥٣.

(٧) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩٨؛ جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء، تحقيق، يوليوس ليبرت (لايبزك، ١٩٠٣)، ص١٠١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص١٨٧.

(٨) القفطي، المصدر السابق، ص١٠١.

(٩) المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩٨.

(١٠) أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه، الأب أنطون صلحاني اليسوعي (ط٤، بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٧)، ص١٤٤. يقول البيهقي عن حنين: "وكان بغدادي المولد، وقد نشأ بالشام وتعلم بها". ظهير الدين أبي الحسن علي بن زيد، تتمة صوان الحكمة أو تاريخ حكماء الإسلام، حققه ونشره، محمد كرد علي (باريس: دار بيبليون، ٢٠٠٧)، ص١٦؛ وكذلك: شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، تحقيق، الدكتور عبدالكريم أبو شويرب (ط١، ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٨٨)، ص٢٩١.

(١١) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٢) المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٣) النديم، المصدر السابق، م٢، ج١، ص٢٩١؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(١٥) البيهقي، المصدر السابق، ص٢١؛ القفطي، المصدر السابق، ص١٢٠؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩؛ الشهرزوري، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(١٦) المصدر السابق، ص١٢٠.

(١٧) البيهقي، المصدر السابق، ص٢١؛ الشهرزوري، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(١٨) القفطي، المصدر السابق، ص١١٥.

(١٩) المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٢٠) القفطي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٢١) القفطي، المصدر السابق، ص١١٧؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٢٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٥٤٦، ص٥٤٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٥٤٨.